مدام بترفلاي .. جياكومو بوتشيني

Giacomo Puccini MADAME BUTTERFLY

«مدام بتفلاي» مأساة غنائية في ثلاثة فصول تقوم على المسرحية الأمريكية التي تحمل نفس السم، والتي كتبها «دافييد بيلاسكو» David Belasco و«جون لوثر لونج» John Luther Long. وقد نظم كلمات الأوبرا بالإيطالية «جيوسيبي جياكوزا» Giuseppe Giacosa و«لويجي اليكا» Luigi Illica، ووضع ألحانها الموسيقي الإيطالي المعروف «جياكومو يوتشيني» Giacomo Puccini وقدمت لأول مرة على مسرح «سكالا» La Scala بميلانو في ١٧ فبراير عام ١٩٠٤.

شخصيات الأوبرا:

بنكرتون: ملازم بالبحرية الأمريكية	Pinkerton
جورو: سمسار زواج ياباني	Goro
شاربلس: قنصل أمريكا في اليابان	Sharpless
مدام بتفلاي (أو تشوتشوسان)	Mad. Butterfly
سوزوكي: خادمتها	Suzuki

ياماداوري: نبيل ياباني Yamadori

الكاهن: عم مدام بتر فلاي The Bonze

كيت بنكرتون: زوجة بنكرتون الأمريكية K. Pinkerton

زمن الأوبرا: العصر الحاضر

المكان: مدينة «ناجاساكي» باليابان

الفصل الأول

المنظر - فيلا تطل على حديقة

عندما وجد «بنكرتون» الضابط بالبحرية الأمريكية أن سفينة ستبقى راسية بمياه اليابان بضعة أشهر، فكر في الزواج المؤقت من إحدى اليابانيات. وهو الآن بصحبة السمسار «جورو» الذي عثر له على زوجة مناسبة، والذي يؤكد له أنه يستطيع ترك زوجته وقتما يشاء، وأنه ملزم بها فقط طالما هو مقيم معها.

إلا أن «تشوتشوسان» الفتاة اليابانية التي قبلت الزواج من الضابط الأمريكي قد وقعت في هواه، وباتت تحلم بأنها ستمضي معه بقية حياتها في زواج دائم سعيد. وقد بلغ من شدة تعلقها بالضابط أن نبذت دين أهلها ومعتقداتهم. و«جورو» الآن يعرض على «بنكرتون» المنزل الذي سيقيم فيه مع الفتاة اليابانية التي اختارها له.

جورو: لقد أعددت كل شيء. وسوف يصل أقارب العروس بعد قليل.

وهنا يقبل «شاربلس» – قنصل أمريكا في اليابان – فيخبره بنكرتون بأنه يستطيع إلغاء عقد المنزل والزواج في أية لحظة! ولكن هذا الاستخفاف يصدم القنصل الأمريكي فيقول للضابط أن الفتاة ذهبت إليه بمقر

القنصلية في هذا الشأن، وأنه تأثر كثيرا من بساطتها وإخلاصها وثقتها المطلقة في جدية الزواج.

القنصل: إن حديثها كان ينم عن إخلاص عميق!

وعبثا يحاول أن يثنى الضابط عن إتمام الزواج، وفي هذه اللحظة يظهر «جورو» وهو يلهث معلنا وصول العروس «تشوتشوسان» (مدام بترفلاي) وصديقاتها.

فيختبئ القنصل والضابط ليرقبا وصولها. وتتقدم الفتاة اليابانية وهي تغني في نشوة: «إنني أسعد فتاة في اليابان، بل في العالم بأسره..» وهنا يظهر الرجلان فيسألانها عن نفسها وحياتها. فتجيب في صراحة متناهية:

بترفلاي: كان أهلي فيما مضى من الأثرياء، ولكن والدي توفى وأصبحت والدتي في فقر مدقع ذليل. فاضطررت إلى كسب قوتي من الرقص والغناء. وليس عندي سوى عم واحد وهو من رجال الدين..

ويقبل مسجل العقود وأقارب بترفلاي فتقدمهم للقنصل والضابط. ويهمس القنصل للضابط محذرا:

– إن الفتاة تثق فيك، فكن على حذر!

ولا تكاد مراسيم الزواج تتم حتى يقطع الاحتفال صوت رجل متقدم في السن يصيح في ثورة حانقة.. إنه الكاهن عم بترفلاي الذي جاء ليعنفها على فعلتها:

الكاهن: ماذا كنت تفعلين في «الإرسالية» الأمريكية؟

ثم يعلن للمحتفلين صائحا:

– لقد تخلت عن دينها القويم ونبذتنا. ولذلك فإننا سننبذها جميعا!

ويغادر الكاهن المكان، فيمضي من ورائه جورو والأقارب والأصدقاء والقنصل، ولا يبقى في المنزل سوى الضابط وعروسه بترفلاي. ويجلس العروسان يرميان إلى الشمس الغاربة التي أوشكت أن تختفي وراء الأفق. ويهيج منظر الغروب مشاعر بترفلاي فتبوح لزوجها بحبها الدفين.

وهنا تعزف الموسيقى لحنا صارخا يذكرها بلعنة عمها الكاهن فيتملكها الخوف وتفضي إلى زوجها بمكنون قلبها. وإذ يحاول الزوج أن يستجيب لها تصرح له بأنها طالما ترددت في الزواج من رجل أجنبي، ثم تتوسل إليه أن يبادلها الحب وتسأله خائفة:

بترفلاي: يقولون أن الرجل في بلادكم إذا صاد فراشة (بترفلاي) فإنه يقتلها بإبرة!

ومرة أخرى تعزف الموسيقى اللحن الصاخب فيذكرها بلعنة عمها الكاهن فترتعد من الخوف. ويحاول بنكرتون أن يهدئ من روعها ثم ينخرط معها في غناء هادئ نشوان: «الليل يحيط بنا والعالم كله يتأهب للرقاد...»

الفصل الثاني

المنظر - داخل منزل مدام بترفلاي

انقضت ثلاث سنوات منذ أن غادر بنكرتون اليابان وانقطعت أخباره عن زوجته اليابانية. ومع ذلك فإن مدام بترفلاي لا تزال تثق فيه وتعتقد أنه سيعود لها مرة أخرى. وإذ تحاول خادمتها المخلصة «سوزوكي» إقناعها بأن لا فائدة من انتظار الزوج لن يعود، تشرع بترفلاي قي غناء هائم مشجي، وتحلم باليوم المجهول الذي قد يعود لها فيه زوجها الغائب: «ذات يوم رائع بهيج سنلمح وراء الأفق سفينة بعيدة مقبلة يتصاعد دخانها عاليا في السماء..» ولا تكاد تفرغ من الغناء حتى يدخل القنصل «شاربلس» ومعه السمسار «جورو». وتبتهج بترفلاي عندما تعلم أن القنصل يحمل رسالة من زوجها. ولكنها لا تعلم أن الرسالة تحوى نبأ زواج بنكتون من زوجة أمريكية!

ولا يدري القنصل كيف يصارحها بالحقيقة المؤلمة التي يعرف تمام أن فيها القضاء عليها. أما جورو فيعرض عليها الزواج من نبيل ياباني يدعى «يامادوري» أحضره معه لذلك الغرض. وإذ يطلب النبيل يدها ترده الزوجة الحزينة خائبة:

بترفلاي: إن يدي تخص شخصا آخر!

جورو: ولكن هجر الزوجة معناه الطلاق

بترفلاي: قد يكون ذلك صحيحا في اليابان، ولكني أمريكية!..

وأخيرا تنهض غاضبة وتطرد السمسار والنبيل الياباني ثم تستدير إلى القنصل الأمريكي وتتوسل إليه أن يقرأ عليها الخطاب. ولكن القنصل لا يجد الشجاعة الكافية ليفضي إليها بالخبر الأليم. فيقترح عليها أن تقبل الزواج من «يامادوري». ولا تقوى بترفلاي على سماع هذا الاقتراح، فتغادر الغرفة مسرعة ثم تعود وقد حملت على ذراعيها طفلا صغيرا.

القنصل: هل هذا ابنه؟

بترفلاي: وهل رأيت من قبل يابانيا أزرق العينين؟

ويدرك القنصل قسوة مواجهتها بالحقيقة فيستأذن في الانصراف واعدا بأن يخبر بنكرتون بأنه أنجب منها طفلا.

وهنا تسمع طلقة مدفع قادمة من تجاه الميناء. فتخرج بترفلاي وخادمتها سوزوكي مسرعتين إلى الشرفة. ولشد ما تكون فرحتها عندما تلمحان من بعيد سفينة بنكرتون وحالما تتعالى الموسيقى بلحن أغنية بترفلاي التي مطلعها: «ذات يوم رائع بهيج سنلمح وراء الأفق سفينة بعيدة مقبلة يتصاعد دخانها عاليا في السماء..»

وفي فورة النشوة والانفعال تأمر بترفلاي خادمتها بتزيين المنزل بالأزهار وتنشد مبتهجة: «انثري البنفسج هنا وهناك وامتلئ بالورد كل مكان...» وإذ تفرغ من الغناء تطلب من خادمتها قائلة:

– زيني لي وجهي بقليل من المساحيق، واحضري لي ثوب عرسي!

وتغمر عتمة الليل السماء، ويغلب النعاس الطفل الصغير والخادمة فينصرفان للنوم، في حين تبقى بترفلاي ساهرة تفكر وتنتظر.. دون أن تعلم إلى متى يطول بها الانتظار!

الفصل الثالث

المنظر - نفس المنظر السابق

ترفع الستار عن الفصل الأخير، فإذا بالغرفة غارقة في نور الفجر، وإذا بمدام بترفلاي لا تبصر أمامها سوى نور الأمل.. فقد أتى النهار ولم يأت معه زوجها الغائب!

وتستيقظ «سوزوكي» فتتوسل إلى سيدتها المتعبة أن تخلد إلى الراحة، وتستجيب مدام بترفلاي إلى طلب خادمتها وهي تقول:

– سأذهب لأنام كي يبدو وجهي جميلا عندما يعود!

ولا تكاد تخرج حتى يسمع قرع على الباب. وتسرع سوزوكي لتفتحه فترى أمامها القنصل ومعه بنكرتون! ثم تلمح سيدة أجنبية في الحديقة فتسألهما:

– من تكون تلك السيدة؟.

لقد أحضر بنكرتون معه زوجته الأمريكية لتأخذ الطفل وتعنى به!

وتشرع الخادمة تحدث بنكرتون عن حب سيدتها له وثقتها فيه وتفانيها في الإخلاص له، فتنتابه نوبة من الندم ووخز الضمير. وتغادر الخادمة الغرفة، فيشرد بنكرتون مع ذكرياته، وتمر أمامه صور ماضية مع

بترفلاي في شكل حلم رائع نشوان، فيغمره الأسى ويغني: «وداعا أيها المنزل السعيد وداعا يا مهد غرامي..» ولكنه لا يقوى طويلا على البقاء في ذلك المنزل الذي تطارده فيه صور الماضي، فيغادره في يأس موجع مرير. وبعد قليل تدخل «كيت بنكرتون» – زوجته الأمريكية – ومعها الخادمة سوزوكي.

كيت بنكرتون: هل لك أن تخبريها بأن تثق بي في العناية بالطفل؟

سوزوكي: نعم!

وهنا يسمع نداء بترفلاي. وعبثا يحاول الجميع صرفها عن الدخول. فحالما تظهر أمامهم لتواجه لأول مرة الزوجة الأمريكية!

بترفلاي: من عساها تكون تلك السيدة؟

ويترفق بها القنصل والخادمة ويخبرانها بأنها زوجة بنكرتون وبأنها جاءت لتعنى بالطفل.

وتتمالك بترفلاي شعورها فتهنئ الزوجة الأمريكية بزواجها، وتخبرها بأن الطفل سيكون معدا بعد نصف ساعة، ثم تقول لها:

– سأعطي بنكرتون طفله إذا ما جاء ليأخذه بنفسه!

وينصرف الجميع، فتبقى بترفلاي في حزن غامر أليم. وبعد برهة يفتح الباب وتدخل منه الخادمة وقد حملت الطفل الصغير. فتقترب منه بترفلاي وتغني له أغنية حزينة يتساقط منها الأسى.. أنها أغنية الوداع: «ابني العزيز يا من منحتني إياك السماء من جنتها الخالدة..» ثم تغطي الطفل في حنان زائد بوشاح أبيض رقيق، وتتوارى خلف ستار النافذة.

ويعود بنكرتون وزوجته والقنصل في الموعد المحدد لاستلام الطفل، فيجدون مدام بترفلاي جثة هامدة على الأرض وبجوارها خنجر نقش عليه: «إذا لم تستطع أن تعيش كريما، فمت كريما»!

ستار